مداخلة البروفسور سليم دكّاش اليسوعيّ، رئيس جامعة القدّيس يوسف في بيروت، في الجلسة الافتتاحيّة للمؤتمر اللّبنانيّ الرومانيّ "ميرسيا إلياد *Mircea Eliade* : الدين والفلسفة والأدب" الذي ينظّمه مركز دراسات ميشال هنري Michel Henry وقسم الفلسفة في كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة في جامعة القدّيس يوسف في بيروت، بالشراكة مع كليّة الآداب في جامعة بابيش–بوليلي في كلوج نابوكا Babeș–Bolyai de Cluj–Napoca، رومانيا، يوم الأربعاء الواقع فيه ١٢ شباط (فبراير) ٢٠٢٠، في الساعة الخامسة من بعد الظهر، في قاعة المحاضرات (المبنى C–الطابق الخامس) – حرم العلوم الإنسانيّة، شارع الشام.

إنّه لأمرٌ عزيزٌ جدًّا عليّ أن أكون معكم، في هذه اللحظة الافتتاحيّة لهذا المؤتمر اللبنانيّ الرومانيّ حول عملاق من عمالقة التاريخ والفكر الفلسفيّ المتعلّق بالأديان، ميرسيا إلياد Mircea Eliade، وتبادل بعض الأفكار حوله. إنّه باختصار إنجازٌ رائع قام به قسم الفلسفة في كليّتنا، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، مع كليّة الآداب في بابيش–بوليلي في كلوج نابوكا Babeș–Bolyai de Cluj–Napoca في رومانيا. جاء هذا المؤتمر ليُثري العلاقات الثقافيّة والأكاديميّة بين رومانيا ولبنان، وبين جامعة القدّيس يوسف في بيروت وجامعات رومانيا، وهو يذكّرنا دائمًا بأنّ أحد مؤسّسي معهد الدراسات الإسلاميّة والمسيحيّة في جامعة القدّيس يوسف في بيروت كان المغفور له أندريه سكريما André Scrima الذي ترك آثارًا لا تُنسى على هذه الأرض، أرض لبنان. إنّ المؤتمر الذي يُعقَد بالتوازي مع هذا المؤتمر المكرَّس للأب سكريما هو مثال جيّد للمكان الذي شغله والذي سيشغله في ذاكرتنا الثقافيّة والروحيّة.

بالالتفات نحو المؤتمر الذي تستهلّونه اليوم، أستطيع أن أقول إنّه لا يمكن إقامة مثل هذا الحدث الثقافيّ كلّ يوم، خاصّةً في هذه الأوقات الصعبة التي تقلّ فيها استضافة المؤتمرات في بلدنا لبنان بسبب الأزمة الاقتصاديّة والاجتماعيّة التي لا مثيل لها، وهي أزمة تفرض لعبة تطويق تداول الفكر، الأمر الذي يقودنا إلى استدعاء تجلٍّ للمقدَّس يمكن أن يساعدنا على الخروج من الطريق المسدود.

في هذا الترتيب التمهيديّ لهذا المؤتمر العلميّ الهامّ، لا أدّعي معالجة إحدى المواضيع المتعلّقة بفكر إلياد أو المجازفة بالقيام بتوليفة عمله الثريّ والمعقَّد للغاية، خاصّةً في المجال الدينيّ. بالنسبة إليّ، وبدءًا من السياق الدينيّ الحاليّ في منطقتنا حيث يتشابك الدين والسياسة والاقتصاد والمجتمع، فإنّني أختار التركيز على منهجيّة نهج علم الظواهر (الفينومينولوجيا) الذي يضمن في مكانٍ ما وحدة العمل ككلّ. ما يهمّني إذن هو أنّه كان أوّل من اعتبر الدين ظاهرة إجتماعيّة تاريخيّة يجب دراستها والتي يمكن أن تستخرج مفاهيم عالميّة يجب أن تؤخَذ بالاعتبار في أيّ تصوّر للدين، بموجب الشكل الذي يظهر فيه. ونتيجةً لذلك، فإنّ بنية التجربة الدينيّة، وفقًا لما ذكره إلياد، "هيروفانيّة" تُعرَّف ببساطة بأنّها "تجلٍّ للمقدّس". وينظر الكائن البشريّ إلى المقدَّس الدينيّ على أنّه تجلٍّ للواقع المطلق الذي يظهر في ما هو نسبيّ، وتجلٍّ للكامل في اللاكامل، وللانهائيّ في النهائيّ. يفترض تجلّي المقدَّس التباين التامّ، والانقطاع الجذريّ بين ما يتجسّد (المقدّس، والمطلق) وفي ما يتجسّد فيه (الدنيويّ المدنَّس، والنسبيّ). هناك فرق بين الاثنين ليس بالكمّية بل بالنوعيّة. إنّه الآخر المطلق (*Ganz Andere*) الذي يتجلّى ولا يُختَزَل بأيّ شيء نعرفه أو يمكن أن يخضع لإرادتنا أو نمتلكه.

لكنّ هذا التحليل الذي يتبّع بدقّة للغاية مؤرّخين ومفكّرين آخرين في الدين، يؤدّي إلى إيلاء أهميّة خاصّة لجدليّة المقدَّس وانطلاقًا منها، يحدّد إلياد الطبيعة المركّبة والمعقّدة اللانهائيّة لهذه الظاهرة، لا بل نظريّة الرمزيّة الدينيّة التي تتجذّر فيها هذه الجدليّة وتتكشف في قلب المدنَّس الدنيويّ نفسه. حتّى وإن كان هناك إختلاف نوعيّ بين الفئتين، فهناك دائمًا خطر أن يتسلّل المقدَّس إلى المدنَّس بجعله مقدَّسًا كما هو الحال في مفهوم *الحرام*. الموضوع المدنّس (الدنيويّ) لا حقيقة له إلا كونه عرضة لظهور المقدّس. الموضوع يظهر للإنسان على أنّه مقدَّس، لأنّه يجسّد فجأةً المطلق. من خلال *النعمة* الغامضة، وعن طريق *الانتخاب*، تُضاف هذه القيمة على الموضوع المدنّس ولذلك، لا وجود إلا للمدنّس بالنسبة إلى إلياد. ومع ذلك، لا يُجَلّ هذا الموضوع ببساطة لذاته، ولكن باعتباره يُبيّن ويُظهر الآخر المطلق. من المحتمل أن يترك المطلق يومًا هذا الموضوع ليستثمر آخر. فيكون هناك بالتالي تحويل للمقدّس. مرّة أخرى، سيصبح الموضوع الذي كان مكرّسًا موضوعًا مدنَّسًا (دنيويًّا).

من خلال نقل هذا الافتراض إلى حقائقنا الدينيّة المزعومة الخاصّة بفضائنا الشرق أوسطيّ، نلاحظ من ناحية، أهميّة منهجيّة إلياد ومن ناحية أخرى، واقع الدين في صيغة الجمع وفي تعبيراته المختلفة كظاهرة إجتماعيّة وتاريخيّة، في الوقت الذي يتمّ فيه اعتبار هذا الدين في العديد من مظاهره المتنوّعة، في حدّ ذاتها، إجتماعيّة أو ثقافيّة أو سياسيّة، كالمقدّس بامتياز، وبالتالي لا يمكن المساس به، فهو الآخر المطلق وكلّي القدرة. الإنسان الدينيّ، المستثمر في ظهور المقدّس، يعتقد نفسه المصطفى، الموضوع جانبًا والمختار ليكون الأمين على الإيمان والشريعة. هذا الرجل نفسه يمكن أن يصبح مدنّسًا مرّة أخرى من خلال إعفائه من قدسيّته وبالتالي اعتباره مدنّسًا أو نجسًا بامتياز. الإنسان المعاصر هو الظهور النهائيّ لهذا الشخص العادّي لأنّه عندما يقوم بعمل ما، فإنّه يؤدّيه كعمل، مجرّدًا من أيّة أبعاد دينيّة.

إنّ مجتمعاتنا، وإن كانت منفتحة على العالم الحديث وحتّى لو كان سكّانها يعيشون في ظلّ نظام عولمة وسائل الإعلام، تميل إلى اعتبار أي تصرّف على أنّه تصرّف دينيّ جزئيًّا أو كليًّا. يظلّ Mircea Eliade معاصرًا لنا لأنّه يزوّدنا بمفاتيح لفهم أفضل لمكان الدين ووظيفته في مجتمعنا.

من الصعب أن نختتم مع ميرسيا إلياد. لهذا السبب مؤتمركم هو أمرٌ ضروريّ وسوف يفتح وجهات نظر مثيرة للاهتمام لفهم أفضل لفكره ! أتمنّى لكم مؤتمرًا جيّدًا وأتوجّه بالشكر مسبقًا للمحاضرين.